الجمال البائس[١]

ـ ١ ـ

« وكيف يُشعَبُ صدْعُ الحبِّ[٢] في كبِدي » ، كيف يُشعَبُ صدعُ الحبِّ ؟

لَعمري ما رأيتُ الجمالَ مرَّةً إلا كان عندي هو الألم في أجمل صُوَره وأبدعها ، أتراني مخلوقاً بجرح في القلب ؟

ولا تكون المرأة جميلةً في عيني ، إلا إذا أحسستُ حين أنظرُ إليها : أنَّ في نفسي شيئاً قد عرفها ، وأنَّ في عينيها لحظاتٍ موجَّهةً إليَّ ، وإن لم تنظر هي إليَّ .

فإثبات الجمالِ نفسَه لعيني أن يُثبت صداقته لروحي باللَّمْحة ؛ الَّتي تدلُّ ، وتتكلَّم ؛ تدلُّ نفسي ، وتتكلَّم في قلبي !

* * *

كنت أجلس في (إسكندرية) بين الضُّحى ، والظُّهر ، في مكانٍ على شاطئ البحر ، ومعي صديقي الأستاذ (ح)[٣] من أفاضل رجال السِّلك السِّياسي ، وهو كاتبٌ من ذوي الرَّأي ، له أدبٌ غضٌّ ، ونوادرُ ، وظرائف ، وفي قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله في مثله ، قد بلغ ما شاء الله قوَّةً ، وتمكُّناً ، حتَّى لأحسبُ : أنَّه رجلٌ من أولياء الله ، قد عوقب ، فحكم عليه أن يكون محامياً ؛ ثمَّ زيد في الحكم فجعل قاضياً ، ثمَّ ضُوعفت العقوبة فجعل سياسيَّاً . . .

وهذا المكان ينقلب في الليل مَسْرحاً ، ومرقصاً ، وما بينهما . . . فيتغاوى فيه الجمال، والحبُّ، ويَعرضُ الشَّيطان مصنوعاته في الهزل ، والرَّقص ، والغناء[٤] .

---

(١) انظر قصَّة صاحبة الجمال البائس في « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » وقد كان له ولها شأن تعرف تفصيله ثمة . (س) .

(٢) « يشعب صدع قلبه » : يُصلح صدعه . والصدع : الشَّق .

(٣) الأستاذ حافظ عامر بك . (س) .

(٤) انظر مقالة (لو . . .) في الجزء الثاني ، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه . (ع) . قلت : يعني المسرح الصَّيفي للراقصة ببا ! (س) .

فإذا دخلته في النَّهار رأيتَ نورَ النَّهار كأنَّه يَغسله ، ويغسلك معه ، فتُحسُّ للنُّور هناك عملاً في نفسك .

ويُرى المكان صدْراً من النَّهار كأنَّه نائم بعد سهر الليل ، فما تجيئه من ساعةٍ بين الصُّبح والظُّهر إلا وجدته ساكناً هادئاً ، كالجسم المستثقِل نوماً ؛ ولهذا كنتُ كثيراً ما أكتب فيه ، بل لا أذهبُ إليه إلا للكتابة .

فإذا كان الظُّهرُ أقبل نساءُ المسرح ومعهنَّ من يُطارِحهنَّ الأناشيدَ وألحانها ، ومن يثقِّفهنَّ في الرَّقص ، ومن يُروِّيهنَّ ما يمثلْنَ ، إلى غير ذلك ممَّا ابتلتهنَّ به الحياة لتساقِط عليهنَّ الليالي بالموت ليلةً بعد ليلةٍ .

وكنَّ إذا جئن رأينني على تلك الحال من الكتابة ، والتَّفكير ، فينصرفن إلى شأنِهنَّ ، إلا واحدةً كانت أجملهنَّ[1] ؛ وأكثر هؤلاء المسكيناتِ يظهرْنَ لعين المتأمِّل كأنَّ المرأة منهنَّ مثلُ العَنز التي كُسر أحدُ قرنيها ، فهي تحمل على رأسها علامة الضَّعف ، والذلَّة ، والنَّقص ، ولو أنَّ امرأةً تتبدَّد حيناً ، فلا تكون شيئاً ، وتجتمعُ حيناً ، فتكون مرَّةً شيئاً مقلوباً ، وأخرى شكلاً ناقصاً ، وتارةً هيئةً مشوَّهةً ؛ لكانت هي كلَّ امرأةٍ من هؤلاء المسكينات اللَّواتي يمشينَ في المسرَّات إلى المخاوف ، ويعشْنَ ، ولكن بمقدِّمات الموت ، ويجدنَ في المال معنى الفقر ، ويتلقَّينَ الكرامة فيها الاستهزاء ، ثمَّ لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهنَّ من أجله لعنةُ أبٍ ، أو أمٍّ ، أو زوجةٍ .

* * *

وتلك الواحدة ؛ الَّتي أومأت إليها كانت حزينةً مُتسلِّبةً[2] فكأنَّما جَذبها حزنها إليَّ ، وكانت مفكرةً ، فكأنَّما هداها إليَّ فكرُها ، وكانت جميلةً ، فدلَّها عليَّ الحبُّ ، وما أدري والله أيُّ نفسينا بدأت ، فقالت للأخرى : أهلاً . . .

ورأيتها لا تصرف نظرَها عنِّي إلا لتردَّه إليَّ ، ولا تردُّه إلا لتصرفه ؛ ثمَّ رأيتُها قد جال بها الغزَلُ جوْلةً في معركته . . . فتشاغلتُ عنها لأريها أنِّي أنا الخصم الآخر في المعركة . . .

(١) يعني راقصة هناك اسمها : بنوتشيا . (س) .
(٢) يقال : تسلَّبت المرأة : إذا أحدَّت ، أي : لبست ثياب الحِداد . (ع) .

بَيْدَ أنِّي جعلت آخذها في مَطارح النَّظر ، وأتأمَّلُها خُلسةً بعد خُلسةٍ في ثوبها الحريريِّ الأسود ، فإذا هو يشُبُّ لونها[١] فيجعله يتلألأ ، ويُظهرُ وجهها بلون البدر في تِمِّه[٢] ، ويُبديه لعيني أرقَّ من الورد تحت نور الفجر .

ورأيت لها وجهاً فيه المرأة كلُّها باختصارٍ ، يُشرق على جسم بَضٍّ ، ألْيَنَ من خَملِ النَّعام ، تعرِض فيه الأنوثة فنَّها الكامل ؛ فلو خُلق الدَّلال امرأةً ؛ لكانتها .

وتَلوح للرَّائي من بعيدٍ كأنَّها وَضَعت في فمها (زِرَّ وَرْدٍ) أحمر مُنْضمّاً على نفسه : شفتان تكاد ابتسامتهما تكون نداءً لشفتَي مُحبٍّ ظمآن . . . !

أمَّا عيناها ؛ فما رأيت مثلهما عينَي امرأةٍ ، ولا ظَبْيةٍ ، سوادُهما أشدُّ سواداً من عيون الظِّباء ، وقد خُلِقتا في هيئةٍ تُثبت وجود السِّحر ، وفعله في النَّفس ، فيهما القوَّة الواثقة أنَّها النَّافذة الأمر ، يُمازجُها حنانٌ أكبر ممَّا في صدر أمٍّ على طفلها ؛ وتمام الملاحة أنَّهما هما ، بهذا التَّكحيل ، في هذه الهيئة ، في هذا الوجهِ القمَريِّ !

يا خالق هاتين العينين ، سُبحانك ، سبحانك !

* * *

قال الرَّاوي :

وأتغافل عنها أيَّاماً ، وطال ذلك منِّي وشَقَّ عليها ، وكأنِّي صغَّرت إليها نفسها ، وأرهقتُها بمعنى الخضوع ، بَيد أنَّ كبرياءها الَّتي أبت لها أن تُقْدِم ؛ أبت عليها كذلك أن تنهزم .

وأنا على كلِّ أحوالي إنَّما أنظر إلى الجمال كما أسْتنشِي[٣] العِطر يكون مُتضوِّعاً في الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمَسَّه ، ولا أحد يستطيع أن يقول أخذتَ منِّي . ثمَّ لا تدفعني إليه إلا فطرة الشِّعر ، والإحساس الرُّوحانيِّ ، دون فطرة الشَّرِّ ، والحيوانيَّة[٤] ومتى أحسَسْتَ جمال المرأة ؛ أحسَسْت فيه بمعنى أكبر من المرأة ،

---

(١) يزيده ، ويظهره ، ويجعله أحفل بالجمال . (ع) .

(٢) « تمّه » : تمامه .

(٣) « أستنشي » : أشمّ .

(٤) بسطنا هذا المعنى في المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، فلم نتوسَّع فيه هنا . (ع) .

أكبر منها ؛ غير أنَّه هو منها .

قال الرَّاوي :

فإنِّي لجالِسٌ ذات يوم وقد أقبلتُ على شأني من الكتابة ، وبإزائي فتىً رَيِّقُ الشَّباب[١] ، في العُمر الَّذي ترى فيه الأعين بالحماسة ، والعاطفة أكثر ممَّا ترى بالعقل ، والبصيرة ، ناعمٌ ، أمْلدُ[٢] ، تمَّ شبابُه ، ولم تتمَّ قوَّته ، كأنَّما نكصت الرُّجولة عنه ؛ إذ وافته ، فلم تجدْه رجلاً . . . أو تلك هي شيمة أهل الظَّرف ، والقصْف[٣] من شبَّان اليوم : ترى الواحد منهم ، فتعرف النُّضج في ثيابه أكثر ممَّا تعرفه في جسمه ، وتأبى الطَّبيعة عليه أن يكون أنثى ، فيجاهد ليكون ضرْباً من الأنثى . . . ! إنِّي لجالسٌ ؛ إذ وافت الحسناءُ ، فأومأت إلى الفتى بتحيَّتها ! ثمَّ ذهبت فاعتلَتِ المنصَّة مع الباقيات ، ورقصتْ ، فأحسنت ما شاء ، وكأنَّ في رقصتها تعبيراً عن أهواءٍ ، ونزعاتٍ تريد إثارتها في رجل ما . . . فقلت لصاحبنا الأستاذ (ح) : إنَّ كلمة الرَّقص إنَّما هي استعارةٌ على مثل هذا ، كما يستعِرْن كلمة الحبِّ لجمع المال ؛ ولا رقصَ ، ولا حبَّ إلا فجورٌ ، وطمعٌ .

ثمَّ إنَّها فرغت من شأنها ، فمرَّت تتهادى حتَّى جاءت ، فجلست إلى الفتى . . . فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمَّ بما في نفسها : أتراها جعلته هاهنا مَحطةً . . . ؟

قال الرَّاوي : أمَّا أنا فقلت في نفسي : لقد جاء الموضوع . . . وإنِّي لفي حاجة أشدَّ الحاجةِ إلى مقالةٍ من المكحولات ، فتفرَّغتُ لها أنظرُ ماذا تصنع ، وأنا أعلم : أنَّ مثل هذه قليلاً ما يكون لها فكرٌ ، أو فلسفةٌ ؛ غير أنَّ الفكر ، والفلسفة ، والمعاني كلَّها تكون في نظرها ، وابتساماتِها ، وعلى جسمها كلِّه .

* * *

وكان فتاها قد وَضع طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهدٍ رجع حكمُ الطُّربوش فيه على رأس الشَّاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة . . . فأسفر ذاك من طربوشه ، وأسفرتْ هذه من نقابِها ، قال الرَّاوي : فما

---

(١) « ريق الشباب » : أوَّله .
(٢) « أملد » : ناعم ، ليِّن .
(٣) « القصف » : الإقامة في الأكل ، والشراب ، واللهو .

جلستْ إلى الفتى ؛ حتَّى أدنتْ رأسها من الطُّربوش ، فاستنامتْ إليه ، فألصقت به خدَّها .

ثمَّ التفتت إلينا التفاتة الخُشْفِ المذعور استروَحَ السَّبعَ[١] ووجدَ مقدِّماته في الهواء ؛ ثمَّ أرخت عينيها في حياءٍ لا يستحِي . . .

وأنشأتْ تتكلَّم ، وهي في ذلك تسارقنا النَّظر ؛ كأنَّ في ناحيتنا بعضَ معاني كلامها .

ثمَّ لا أدري ما الَّذي تضاحكت[٢] له ، غير أنَّ ضحكتها انشقَّت نصفين ، رأينا نحن أجملهما في ثغرِها . . .

ثمَّ تزعزَعت[٣] في كرسيِّها كأنَّما تهُمُّ أن تنقلبَ ؛ لتمتدَّ إليها يدٌ فتمْسكها أن تنقلب . . .

ثمَّ تساندت على نفسها ، كالمريضةِ النَّائمةِ تتناهض من فراشها ، فيكاد يَئِنُّ بعضها من بعض ، وقامت ، فمشت ، فحاذتنا ، وتجاوَزَتْنا غير بعيدٍ ، ثمَّ رجعت إلى موضعها متكسِّرَةً ، مُتخاذلةً ، كأنَّ فيها قوَّةً تعلِنُ أنَّها انتهت . . .

* * *

قال الرَّاوي :

نظرتُ إليها نظرةَ حزنٍ ؛ فتغضَّبتْ ، واغتاظت ، وشاجرَتْ هذه النَّظرةَ من عينيها الدَّعجاوَين بنظراتٍ متهكِّمةٍ ، لا أدري : أهي توَبِّخُنا بها ، أم تتَّهمنا بأنَّنا أخذنا من حُسنها مجاناً . . . ؟

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجْهرُ بالكلام ليبْلغها :

أما ترى : أنَّ الدُّنيا قد انتكست في انتكاسِها ، وأنَّ الدَّهرَ قد فسدَ في فساده ، وأنَّ البلاءَ قد ضوعِف على النَّاس ، وأنَّ بقيَّةً من الخير كانت في الشَّرِّ القديم ، فانتزِعت ؟

---

(١) « الخشف » : ولد الغزال ، يُطلق على الذكر والأنثى . و« استروح السبع » : أي : وجد ريحه في الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان . (ع) .

(٢) « تضاحكت » : تكلفت الضحك .

(٣) « تزعزعت » : تحرَّكتْ بشدَّة .

قال : وهل كان في الشَّرِّ القديم بقيَّة خيرٍ ، وليس مثلها في الشَّرِّ الحديث ؟

قلت : هاهنا في هذا المسرح قِيانٌ[١] لو كانت إحداهنَّ في الزَّمن القديم ، لتَنافسَ في شرائها الملوكُ ، والأمراء ، وسَراةُ النَّاس ، وأعيانهم ، فكان لها في عهارة الزَّمن صونٌ ، وكرامةٌ ، وتتقلَّبُ في القصور ، فتجعلُ لها القصورُ حرمةً تمنحها ابتذالَ فنِّها لكلِّ مَنْ يدفع خمسة قروش ، حتَّى لِرذال النَّاس ، وغوغائهم ، وسفلتِهم ، ثمَّ هي يُدْبر شبابُها تكون في دار مولاها حَمِيلةً[٢] على كرمٍ يحمِلها ، وعلى مُروءةٍ تعيش بها .

وقديماً أخذتْ سَلاَّمة الزَّرقاءُ في قبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم ، تبلغ ألفي جنيه . فهل تأخذ القينةُ من هؤلاء إلا دَخينةً[٣] بملِّيمين . . . ؟

قال الأستاذ (ح) : ما أبعدَك يا أخي عن (بورصة) القبلة ، وأسعارها . . . ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الرَّاوي :

كانت سَلاَّمة هذه جارية لابن رامين[٤] ، وكانت من الجمال بحيث قيل في وصفها : كأنَّ الشَّمسَ طالعةٌ من بين رأسِها ، وكتفيها ، فاستأذن عليها في مجلس غِنائها الصَّيرفيُّ الملقَّب بالماجن ، فلمَّا أذِنتْ له ؛ دخل ، فأقعَى بين يديها ، ثمَّ أدخل يدَه في ثوبه ، فأخرَج لؤلؤتين ، وقال : انظري يا زرقاء ! جُعِلتُ فِداك ! ثمَّ حَلفَ : أنَّه نُقِدَ فيهما بالأمسِ أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذاك ؟ قال : أردت أن تعلمي . . .

ثمَّ غنَّت صوتاً ، وقالت : يا ماجِن ! هبهما لي ويحك ! قال : إنْ شئت والله

---

(١) « قيان » : جمع قينة ، وهي الأَمَة ، وغلب على المغنِّيَة .

(٢) « حميلة » : محمولة .

(٣) « الدخينة » : وضعناها للسِّيجارة ، وجمعها : الدَّخائن . (ع) .

(٤) « سلاَّمة » هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) ، كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة بمئة ألف درهم . (ع) .

قلت : وانظر تمام قصَّة سلاَّمة هذه فيما حكى عنها المؤلف في قصَّة « سمو الحب » من هذا الكتاب . (س) .

فعلت ! قالت : قد شئتُ . قال : واليمينُ الَّتي حلفتُ بها لازمةٌ لي إن أخذتِهما إلا بشفتيك من شفتيَّ . . .

* * *

قال الرَّاوي :

ورأيتُها قد أذِنت لي ، وأنصتت لكلامي ، وكأنَّما كانت تسمعُني أعتذِر إليها ، واستيقنتْ أنْ ليس بي إلا الحزنُ عليها ، والرِّثاءُ لها ، فبدَت أشدَّ حياءً من العذراء في أيَّام الخِدْر[1] . . . . . .

ثمَّ قلت : نعم كان ذلك الزَّمن سفيهاً ، ولكنَّها سفاهة فنٍّ . . . لا سفاهة عِرْبدةٍ ، وتصعْلكٍ كما هي اليوم .

فنظَرَت إليَّ نظرةً لن أنساها ، نظرةً كأنَّها تَدمَع ، نظرةً تقول بها : ألستُ إنسانةً ؟ فلم أملك أن قلت لها : تعالي ! تعاليْ !

وجاءت أحلى من الأمل المعترضِ ، سَنحت به الفرصة ، ولكنْ ماذا قلتُ لها ، وماذا قالتْ ؟ . . .

* * *

(١) « الخدر » : البيت إذا كان فيه امرأة ، والسِّتر .